Jurnal AL-ANWAR, Volume 8, No. 2, Disember 2019: 115-135

النقد الموضوعي بين الاطراد والمذهب بين ابن قتيبة وعبد الله ابن المعتز: دراسة نموذجية

Animashaun, Maruf Suraqat

الملخص

مر الأدب العربي بكل أشكاله والدراسات العربية بكل تخصصاتها بمراحل صراع في النقد الأدبي الموضوعي. وهذا الصراع صورة الديمومة والحيوية لدى الأمم في تطورها الفكري والحضاري في مجالات حياتها المختلفة وفي كل العصور السالفة لم يفقد الدارسون ملامح شخصياتهم العلمية. و ليس من شك في أن النقد الأدبي ثمرة من ثمار الإدراك الحي، وقوة الشعور. وعلى هذه الوتيرة تهدف هذه المقالة إلى إظهار بعض الاسهامات والجهود العلمية الفعالة للعبقرية الفذة ابن قتيبة صاحب كتاب "الشعر والشعراء" في تنمية النقد الموضوعي، وفي طليعته على هذا النمط عبد الله ابن المعتز صاحب كتاب "البديع" . وهما من الأعلام الذين قطعوا الطريقة نحو النقد الموضوعي. وسيناقش هذه العجالة على النقد الموضوعي في نظريات ابن قتيبة و ابن المعتز وآرائهما في تطور النقد الأدبي.

الكلمات المفتاحية: النقد الموضوعي؛ الإطراد؛ المذهب؛ ابن قتيبة؛ ابن المعتز.

SUBJECTIVE CRITICISM BETWEEN CONTINUITY AND THE TRADITION: IBN QUTAYBA AND ABDULLAH IBN AL-MU'TAZ: A CASE STUDY

ABSTRACT

Arabic literature in all its forms and Arabic studies in all its specializations have gone through stages of struggles in the subject of literary criticism. This struggle is a picture of the vitality and sustainability of nations in their intellectual and cultural development in different spheres of life. There is no doubt that literary criticism is the most flowering of the living cognition and the power of feeling. At this pace, this article aims to show some of the contributions and effective scientific efforts of the brilliant genius Ibn Qutayba, the author of the book "poetry and poets" in the development of subjective

criticism, and in the forefront of this pattern, Abdullah Ibn al-Mu'taz, the author of the book "Badi'" The duo are one of the prominent figures who have thread the part towards subjective criticism. This paper is going to discuss about subjective criticism in the theories of Ibn Qutayba and Ibn al-Mu'taz and their views on the development of literary criticism.

Keywords*: Subjective Criticism; Continuity; Tradition; Ibn Qutayba; Ibn al-Mu'taz*

المقدمة

من الأعلام الذين قطعوا الطريق نحو النقد الموضوعي "ابن قتيبة" (213- 276هـ) وكتابه "الشعر والشعراء" (ابن قتيبة، 1966: 59) مرآة ناصعة، ترى على صفحاتها كثيرًا من الآراء النقدية، وهو ما يرفع الأستار عنه في هذا المجال إذ يقول: "هذا الكتاب ألفته في الشعراء أخبرت فيه عن الشعراء وأزمانهم وأقدارهم وأحوالهم في أشعارهم وقبائلهم... وأخبرت فيه عن أقسام الشعر وطبقاته، وعن الوجوه التي يختار الشعر عليها ويستحسن لها" (ابن قتيبة، 1966: 59). ثم ينتقل "ابن قتيبة" متابعًا السنن الذي اختاره فيقول: "وكان أكثر قصدي للمشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جل أهل الأدب الذي يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب، وفي النحو، وفي كتاب الله – عز وجل، وحديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم)... ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختارًا له، سبيل من قلد، أو استحسن باستحسان غيره، ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره، بل نظرت بعين العدل على الفريقين، وأعطيت كلا حظه، ووفرت عليه حقه، فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله، ويضعه في متخيره ويرذل الشعر الرصين. ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه أو أنه رأى قائله. ولم يقصر الله العلم والشّعر والبلاغة على زمن دون، ولا خص به قومًا دون قوم، بل جعل ذلك مشتركًا مقسومًا بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم حديثًا في عصره. فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له، وأثنينا به عليه، ولم يضعه عندنا

تأخر قائله أو فاعله، ولا حداثة سنة كل أن الرديء إذا ورد عليها للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه (ابن قتيبة، 1966: 1/59-63). وهذا الكلام الذي أثاره "ابن قتيبة" ينطوي على بعض قضايا وملاحظات:

أ. أن "ابن قتيبة" يعرض لقضاياه النقدية بفكر يتسم بالاستقلالية فلا يذوب في غيره، أو يتفاعل معه، ولا ينساق إلى الملاحظ التي كانت معروفة عند العرب الأسبقين، الموجودين على عصره.

ب. ونتيجة لهذا الفكر قوم "ابن قتيبة" الشاعر لا اعتمادًا على زمنه أو عصره، بل على الشعر الذي يبوئه مكانه من حيث الاستشهاد أو الاحتجاج به وذلك يفرض أو يتوفر له في شعره الفصاحة، وسلامة التراكيب، ودقة المعاني والأصالة.

والواقع الذي لا يقبل الشك أن "ابن قتيبة" خالف معاصره "ابن سلام" في النظرة إلى منزلة الشاعر، ذلك أن "ابن سلام" جعل مياط الحكم على الشاعر الزمان والمكان، في حين أن "ابن قتيبة" لم يعر الزمان والمكان عنايته أو اهتمامه. ولا جدال في أن نظرة "ابن قتيبة" يملؤها الاتصاف، وتقضيها الحيدودة والعدالة، وعلى هذا لم يجد "ابن قتيبة" ما يحول دون أن يتناول شعراء أغفلهم "ابن سلام" من أمثال: "بشار" و"أبي نواس"، وسواهما من العباسيين، كما أنه كان ألمعيا حين تحدث عن "ليلى الأخيلية"، و"عمر بن ربيعة"، و"مجنون ليلى"، و"الكميت بن زيد" بغض النظر عن كونه أصاب حظًا من الجودة أو لم يصب، واضعا كل هؤلاء في تصنيف يختلف عن تصنيف معاصره، "ابن سلام".

وإذا كان "ابن قتيبة" قد خالف معاصره "ابن سلام" فيما ذكرناه فقد اتفقنا في النظرة التى على أساسها يكون التفاضل بين شاعر وآخر، وهذا إنما يتحقق حيث كان التجويد وكثرة الشعر، وإن كان "ابن سلام" عدّ أيا منهما كافيا في تقديم شاعر على شاعر سواه. بينما ركز "ابن قتيبة" على الجودة أولا، وجعل الكثرة معززة أو مرجحة – وفي هذا المعنى يذكر "ابن قتيبة" قائلاً: (ولا أحسب أحدًا من أهل التمييز والنظر، نظر بعين العدل وترك

طريق التقليد يستطيع أن يقدم أحدًا من المتقدمين المكثرين على أحد، إلا بأن يرى الجيد في شعره أكثر من الجيد في شعر غيره). (ابن قتيبة، 1966: 81/1).

وحول الرؤى النقدية التي حكمت "ابن قتيبة" يقف "محمد مندور" مع بعضها موقفا يحاسب فيه "ابن قتيبة" على ما جاء في كلامه مما يتعلق بدعواه الثناء على كل من أحسن مهما يتأخر به زمنه. يقول مندور: "وهذه النظرة المجردة إن صحت أمام العقل فهي لا تصح أمام الواقع كما يبصرنا به تاريخ الأدب العربي، وإنما كانت تصح لو أن الشعر العربي استطاع أن يفلت من تأثير الشعر القديم، ولو أن نزعة "ابن هانئ" ومدرسته استطاعت أن تغلب فتحو بالشعر عن التقليد ليظل حيًا إنسانيًا بعيدًا عن الصنعة والتجويد الفني، يقتصر عليهما جيده، ويسقط الباقي في التصنع المعيب الفاسد، فأما وقد انتصر مذهب القدماء، فمن الواضح لكل ذي بصر بالشعر أن قديم الشعر العربي – أعني الشعر الجاهلي والأموي – خير من الشعر العباسي وما تلاه إلى يومنا هذا" (محمد مندور، 1996: 24).

ومثل هذه القضايا التي يطرحها الدكتور "مندور" كان عليه لكى تصافح العقل أن يقيم عليها من الأدلة ما يرفعها عن التعميم إلى التخصيص، فنحن لا نسلم له أن الشعر الجاهلي كله خير من الشعر العباسي كله، ثم إن القول بأن شعر البادية أجود من الشعر في العصر العباسي، لاتصاله بمنابع الفطرة الأصيلة عند العربي في الجاهلية وعند الأمويين قبل أن تشوبها شوائب الحضارة قد يبدو للوهلة الأولى مسلما لكنه مع ذلك يعوزه البحث الدئوب في أقطار القضية وأبعادها المختلفة. (تاريخ النقد الأدبي 113/1 وما بعدها (زغلول سلام، 1964: 113/1).

مذهبه في النقد الموضوعي

ومهما يكن من أمر فقد جاء نقد "ابن قتيبة" تعبيرًا عن نزعته الدينية اللغوية التي قاومت تيارا جديدا كان في وسعه أن يمسخ معالم الدراسة الأدبية، فهي نزعة تحمد له. وانظر كيف تصدى "ابن قتيبة" لمذهب الفلاسفة في النقد، ومحاولاتهم الاعتماد على المنطق

الكلي في فهم اللغة، وسير أغوارها بدعوته إلى النظر الاستقلالي دون تقديس لمذهب ما، وإصراره على أن يكون النظر في اللغة ومسائلها له أصوله وتقاليده العربية الموروثة (فهو يريد أن تظل التربية الأدبية قائمة على دراسة النصوص القديمة الجيدة دينية كانت أو غير دينية، حتى إذا تكون الذوق الشخصي بطول الممارسة حكمناه فيما نقرأ وصدرنا عنه). (زغلول سلام، 1964: 29).

ولو لم يكن لـ"ابن قتيبة" من فضل سوى هذه لكفى، حيث أثبتت الأيام فيما بعد عمقه ونفاذ نظريته، والذي يقرأ تراثنا العربي الذي حمله كتاب "الصناعتين" لـ"أبي هلال العسكري" لا يتردد في الحكم على أن "ابن قتيبة" يربطه الذوق بالتقاليد والأصالة العربية الموسومة في التعامل مع النصوص كان ينظر إلى الغيب بعد البصر، وإلا فكيف كان حال علوم البلاغة على أيدي "السكاكي" و"الخطيب القزويني" ومن جاراهما؟ والحق أن "ابن قتيبة" مع ما له من صنيع أسداه إلى التراث العربي كان ذا منهج عقلي في نقده، أخذ عليه:

(أ) إسرافه في نزعته التقريرية.

(ب) أنه يمنطق نزعته فينظر نظرة منطقية إلى الظواهر لا نظرة تاريخية.

ومن أسئلة ذلك ما يقوله الدكتور "مندور" عنه "واتجاه "ابن قتيبة" التقريري أشد وضوحا في تقاسيمه للشعر" ((زغلول سلام، 1964: 32). فهو يقول في تقسيمه الأولى: (إن الشعر على أربعة أضرب: ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه، وضرب حسن لفظه وحلا فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى، وضرب جاد معناه وقصرت ألفاظه، وضرب تأخر لفظه) (ابن قتيبة، 1964: 64/1).

وفي تلك التقاسيم والألفاظ ما يدل على أن أحكامه قيمية ذوقية بدليل قوله "حسن" و"جاد" و"حلا" و"قصر" و"تأخر" وهي أحكام مطلقة إذ لم يعلقها على توافق بين لفظ ومعنى، أو بين قائل ومقول أو بين الشاعر وعصره حتى يلوح أن نظرته هذه في نظرة النقد

الذاتي للذوق، إذا صح أن ذلك النقد هو ما يعتمد على أحكام قيمية مطلقة، ومع ذلك ما نكاد نمعن النظر حتى نرى أن أحكامه القيمية هذه تستند إلى حكمين تقريريين سابقين، هما اللذان أمليناها:

1- أولهما: أن اللفظ في خدمة المعنى وأن المعنى الواحد يمكن أن يعبر عنه بألفاظ مختلفة يحلو بعضها ويقصر الآخر.
2- وثانيهما: أنه لابد لكل بيت من الشعر من معنى.

وفي هذين المبدأين من القصور ما سوف يفسر لنا ضعف ذوق "ابن قتيبة" (زغلول سلام، 1964: 32). ويقودنا كلام الدكتور "مندور" إلى أن نعرض لمنظوره النقدي في الأبيات التي عرضنا لها في بداية "هذه الدراسة":

ولما قضينا من منى كل حاجة ** ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على حدب المهاري رحالنا ** ولا ينظر الغادي الذي هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ** وسالت بأعناق المطي الأباطح

قد رأى أن لا قيمة للتعبير وسالت بأعناق المطي إذ تساوى في منظوره، سارت الإبل في الصحراء وشتان ما بين التعبيرين، ويبدو أنه لم يفرق بين الأسلوب الفني والأسلوب العقلي، وذلك أن الأسلوب الفني له إيحاؤه وإشعاعه فالتعبير بـ"سالت" بوحي بأن القوافل في الصحراء استحالت أعناقها أمواجا من سيل يهمي ويتدفق، بينما التعبير الآخر غفل عن هذا الإيحاء وتلك اللفتة، وكان على "ابن قتيبة" أن يلاحظ الفرق بين التعبيرين.

فالقول إذا بأن اللفظ في خدمة المعنى لا يعدو أن يمثل نظرة جزئية قد تتسحب على الأسلوب العقلي الذي يستخدم في التاريخ والفلسفة والعلم – فأما بالنسبة إلى الأساليب الفنية فنظرة تعود على الذوق بالضاد وعلى الأدب بالعقم والجفاف والضحالة، وأرى أن من حق "ابن قتيبة" علينا أن ندعه ينثر الأبيات السابقة بأسلوبه الذي يقول: "ولما قطعنا

أيام مني واستلمنا الأركان وعالينا إبلنا الأنضاء، ومضى الناس لا ينتظر الغادي الرائح، ابتدأنا في الحديث، وسارت المطي في الأبطح، وكان أن عدها لذلك مما حسن لفظه دون معناه" (ابن قتيبة، 1966: 66/1) .

والحق أن "ابن قتيبة" لم يحسن تحليل هذه الأبيات فمسخها مسخا شنيعًا، وذهب بأصل جمالها الذي تراءى منه شيء في الألفاظ، وغفل عن باقيه، وذلك أنه لحظ جمال العبارة وهذا شيء لا خلاف فيه، ثم تناول الأبيات من ناحية الحقيقة العقلية أو الأفكار فنفاها عنها وأنكر قيمتها المعنوية بناء على ذلك، ونقول: أن هذه الناحية المعنوية لم يتوافر لها حكمة سائرة ولا نظرية جديدة وهذا ليس بمحتوم، ثم نجده يغفل عنصرين من عناصر الشعر ولعلهما أصل جماله: العاطفة والخيال، هذه العاطفة تتراءى في أمل الحاج في المغفرة بعد أداء الحج وفي شوقهم إلى أوطانهم الأولى، وفي التألف الذي يجمع بين السفر فيدلون عليه بطريف الأحاديث، وأخفها على النفوس، وقد صور هذه المشاعر بصور خيالية رائعة فكنى بمسح أركان الكعبة واستلامها عن الانتهاء من مناسك الحج، وعن الأخذ في العودة بشد الرحال على متون الإبل، وصور في البيت الثالث تهالك الناس راجعين وتألفهم سائرين تهفو نفوسهم إلى أوطانهم الأولى، وتتعلق قلوبهم بمن فيها من أهل وأصحاب وهكذا، وهذه هي الحقيقة الأدبية التي غفل عنها "ابن قتيبة" (أحمد الشايب، 2006: 229). ومن أنماط النقد عنده ما نسوقه في الأمثلة الآتية:

1- قال "امرؤ القيس بن عابس الكندي:

قف بالديار وقوف حابس *** وتأى إنك غير آيس
ماذا عليك من الوقو "م" *** ف بهامد الطللين دارس
لعبت بهن العاصفا "م" *** ت الرائحات من الروامس

أخذه "الكميت" كله غير القافية فقال:

قف بالديار وقوف زائر *** وتأى إنك غير صاغر
ماذا عليك من الوقو "م" *** ف بهامد الطللين داثر

درجت عليه الغاديا "م" *** ت الرائحات من الأعاصر

(ابن قتيبة، 1966: 583/2).

2- ويقول "أبو نواس" في المرأة:

ومظهرة لخلق الله ودا *** وتلقى بالتحية والسلام

أتيت فؤاداها أشكو إليه *** فلم أخلص إليه من الزحام

فيا من ليس يكفيها خليل *** ولا ألفا خليل كل عام

أراك بقية من قوم موسى *** فهم لا يصبرون على طعام

أخذه منه "العباس بن الأحنف" فقال:

يا فوز لم أهجركم لملالة *** مني ولا لمقال واش حاسد

لكنني جربتكم فوجدتكم *** لا تصبرون على طعام واحد

(ابن قتيبة، 1966: 816/2)

3- وقال علي بن جبلة:

جلاء مشيب نزل *** وأنس شباب رحل

طوى صاحب صاحبا *** كذاك اختلاف الدول

شباب كأن لم يكن *** وشيب كأن لم يزل

كأن حسور الصبا *** عن الشيب حين اشتعل

زها أمل مونق *** أطل عليه أجل

أخذه محمود الوراق فقال:

بكيت لقرب الأجل *** وبعد فوات الأمل

ووافد شيب عنوا *** يعقب شباب رحل

شباب كأن لم يكن *** وشيب كأن لم يزل

طواك بشير البقا *** وحل نذير الأجل

(ابن قتيبة، 1966: 867/2)

فقد قضى ابن قتيبة في الأنماط بالأخذ، ولم يشأ أن يجعله سرقا، اعتدادا مما خاطره من أن هذه المعاني يمكن أن تتوارد على أذهان الشعراء، فالقطع بأنها من قبيل السرق حينئذ تحيف وفتئات، أو لأنه كان ذا نظر استقلالي دعه إلى أن يكون أبعد عن الصراع الذي كان قد اشتد أواره بين القدماء والمحدثين، ومن ثم أعرض عن حيثياتهم، وذهب يقضي بالأخذ نزولا على ما أخذ نفسه به مما سبق أن قدمناه عنه فيما يتعلق بإغضائه عن النظرة إلى المتقدم بعين الإكبار وإلى المتأخر بعين الزراية لتأخره أو لحداثة سنه.

4- وفي إطار الفصل في قضية اللفظ والمعنى ذهب إلى أن الشعر كما أسلفنا أربعة أقسام:

أولا: ضرب حسن لفظه وجاد معناه، ومثل له بأمثلة منها:

أ- قول القائل في بعض بني أمية:

في كفه خيزران ريحه عبق *** من كف أروع في عرنينه شنم

يغضى حياء ويغضى من مهابته *** فما يكلم إلا حين يبتسم

ب- وقول أوس بن حجر:

أيتها النفس أجملي جزعا *** إن الذي تحذرين قد وقعا

جـ- وقول أبي ذؤيب:

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع

(ابن قتيبة، 1966: 64/1)

وقد يروق هذا البيت الأخير للزاهد أو الفقير المكدود، ولكنه لا يروق لمن يحاول الاستمتاع من طيبات الحياة يكسبه الذي يدر عليه الكثير من المال الحلال، ثم هو بعد ذلك تقريري يعرف معناه كل من عرف أحوال النفس الإنسانية ودرس نزعاتها. (عبد الرحمن عثمان، 1968: 162)

ثانيا: وضرب حسن لفظه وحلا، فإذا فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى، وقد مثل لهذا اللون بالأبيات: "ولما قضينا من منى..." الخ، هذا الصنف كما يرى ابن قتيبة كثير في الشعر (ابن قتيبة، 1966: 66/1).

ثالثا: ضرب جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه، كقول لبيد بن ربيعة.

ما عاتب المرء الكريم كنفسه *** والمرء يصلحه الجليس الصالح

(ابن قتيبة، 1966: 68/1)

رابعا: وضرب منه تأخر معناه ولفظه معا، ومما أورد لذلك من أمثلة قول الخليل بن أحمد:

إن الخليط تصدع *** فطر بدائك أوقـع

لولا جوار حسان *** حور المدامع أربـع

أم البنين واسما "م" *** ء والرباب وبـوزع

لقلت للراحل: ارحل *** إذا بدا لـك أودع

(ابن قتيبة، 1966: 69/1)

لا نروم من إيراد هذه الأنماط عند ابن قتيبة إلا أن نعرف كيف كانت ملامح النقد عنده، وهل استطاع بمنهجه العقلي أن يبذ معاصريه، أو أنه انتهى عندما انتهى إليه ابن سلام والجاحظ؟

والواقع أن ابن قتيبة يمثل حلقة من حلقات التقدم نحو نقد منهجي، فعلى مدرجته مضى كما مضى معاصروه، ولم يكن له من إضافة سوى وقفته القوية أمام النقد الفلسفي، وما عدا ذلك من أحكام نقدية على النصوص فقد ساير فيها الإلف والتعميم السائد، وحتى إذا حاول الاقتراب من التفصيل الذي يحتمه النقد رقص في سلاسل من حديد فإذا به يحكم المنطق في نظرته، ويفرض عليها صرامة المنهج الرياضي، وما كان الأدب – وهو فن من الفنون – يعالج بهذه النظرة الفقهية.

فـ"ابن سلام" و"ابن قتيبة" كانا إلى التاريخ الأدبي أميل منه إلى النقد، لأن عرضهم لبعض المسائل الأدبية والمقاييس العامة كان بعيدًا عن الاستقصاء ودراسة النص، وهم إن عرضوا لبعض المسائل الأدبية ولمقاييس العامة كان بعيدًا عن الاستقصاء ودراسة النص، وهم إن عرضوا لبعض المسائل الأدبية والمقاييس العامة لم يكن في نظرتهم استقصاء، ولا دراسة

للنصوص (والنقد ليس تلك التعميمات التي لا طائل تحتها، وإنما هو تحليل النصوص والتمييز بين الأساليب، والذي يمكن أن يصبح علمًا هو منهج التحليل والدراسة والتمييز لا النقد ذاته، فحاول أن نضع له نظريات عامة عن اللفظ والمعنى، والطبع والتكلف وأمثال ذلك... لم يظهر إذا النقد الموضوعي المنهجي قبل القرن الرابع (محمد مندور، 1996: 49).

رحم الله "أبا محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري" فلقد كان فقيهًا نحويا، وذا غيرة على الإسلام، وإن لم يكن ناقدًا على الوجه الذي ينظمه في سلك "الجاحظ" أو "ابن سلام". (عبد الرحمن عثمان، 1968: 163). غير أن النصفة تقتضينا أن نذكر له من الرؤى النقدية ما يؤهله لأن يسلك في عدادهم، وحسبه أنه ألمح إلى المنهج النفسي وغيره في كتاباته.

ابن المعتز

وفي نهاية القرن الثالث، وعلى مشارف القرن الرابع الهجري يلوح لنا واحد من أولئك الذين كان لهم إسهام في إبراز قسمات النقد، ذلك الشاعر العباسي معروف عبد الله بن المعتز (244 – 296هـ) الذي ألف كتابه "البديع" سنة 274هـ ومن شعره الذي ضمنه أنواعا من البديع إما يقول في وصف مليح:

وجاءني في قميص الليل مستترًا *** يستعجل الخطو من خوف ومن حذر
فقمت أفرش خدي في الطريق له *** ذلاً وأسحب أذيالي على الأثر
ولاح ضوء هلال كاد يفضحنا *** مثل القلامة قد قدت من الظفر

(جرجي زيدان، 2009: 165/2)

ويحمل كتابه الذي أسماه "البديع" نظرات، تجعله في سلك النقاد المعروفين للقرن الثالث. يقول في تقديم هذا الكتاب. ولقد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن

واللغة وأحاديث رسول الله (صلعم)، وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم، وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون "البديع" ليعلم أن "بشارا" و"مسلما" و"أبا نواس" ومن تقيلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن، ولكنه كثير في أشعارهم، فعرف في زمانهم حتى سمى بهذا الاسم، فأعرب عنه، ودل عليه، ثم أن "حبيب بن أوس الطائي " من بعدهم شغف به حتى غلب عليه، وتفرع فيه، وأكثر منه، فأحسن في بعض ذلك، وأساء في بعض، وتلك عقبى الإفراط، وثمرة الإسراف، وإنما كان يقول الشاعر من هذا الفن البيت والبيتين في القصيدة، وربما قرأت من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع، وكان يستحسن ذلك منهم إذا أتى نادرًا، ويزداد حظوة بين الكلام المرسل، وقد كان بعض العلماء يشبه "الطائي" في البديع بصالح بن عبد القدوس في الأمثال، ويقول: لو أن "صالحًا" نثر أمثاله في شعره، وجعل بينها فصولا من كلامه لسبق أهل زمانه وغلب على ميدانه. وهذا أعدل كلام سمعته في هذا المعنى ... ولعل بعض من قصر عن السبق إلى تأليف هذا الكتاب ستحدثه نفسه وتمنيه مشاركتنا في فضيلته، فيسمى فنا من فنون البديع بغير ما سميناه به، أو يزيد في الباب من أبوابه كلاما منثورا، أو يفسر شعرا لم نفسره، أو يذكر شعرًا قد تركناه ولم نذكره، إما لأن بعض ذلك لم يبلغ في الباب مبلغ غيره فألقيناه أو لأن فيما ذكرناه كافيًا ومغنيًا. وليس من كتاب إلا وهذا ممكن فيه لمن أراده، وفي دون ما ذكرناه مبلغ الغاية التي قصدناها، وبالله التوفيق. (ابن المعتز،1979: 6) .

وتحمل مقدمة "ابن المعتز" هذه عدة أمور:

1- أن البديع ليس ابتكارًا تمخض عنه العصر، وليس أدل على هذا من أن العرب عرفوا "البديع" في أشعار المتقدمين وكلام الأعراب، كذلك عرفوه في القرآن الكريم وحديث الرسول (صلعم)، وكلام الصحابة.

2- وأن المحدثين من أمثال "بشار بن برد" و"مسلم بن الوليد" و"أبي نواس" لم يخترعوا "البديع" وإن تردد في أشعارهم وكثر على نحو ملحوظ.

3- كما أن "أبا تمام" ليس هو الآخر مخترعا للبديع، كل ما هنالك أنه طغى على شعره. وأفرط في استخدامه، فأحسن في بعضه، وأساء في بعضه الآخر.

4- أن بين الأقدمين والمحدثين فرقا في موقفهم من "البديع"، يبدو في أن الأقدمين كانوا يلمون به في بعض الأحيان فيتراءى في أشعارهم بقلة، على عكس موقف المحدثين كما أشرنا إلى ذلك.

5- أن لابن المعتز فضل السبق إلى التأليف في البديع، وتسمية مصطلحاته، ولكن ذلك لا يمنع أن يتناوله غير "ابن المعتز" تناولا آخر من حيث الزيادة على تلك المصطلحات، أو تفسيرها أو تسمية تلك المصطلحات وبغير ما سماها هو به.

ويتقاضانا الحديث عن "البديع" أن نذكر ألوانه وأبوابه.. والحقيقة أن "ابن المعتز" عدها خمسة: الاستعارة، والتجنيس، والمطابقة، ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها، والمذهب الكلامى.

وتقف الاستعارة بين أبواب شامخة تتضاءل دونها بقية أبواب البديع، والسر في ذلك أنها أمر أصيل في الشعر ولا كذلك بقية أبوابه، فالتجنيس إما عبث لفظي يعتمد على الاشتقاق ولا يستند إلى غير التداعي الشكلي كقول الشاعر يوم خلجت على الخليج نفوسهم وإما لعب بالمعاني ومهارة في استخدام مفردات اللغة المتحدة أو المتقاربة في اللفظ والمختلفة في المعنى كقول الآخر: "إن لوم العاشق اللوم وجلا ظلمات الظلم عن وجه أمة". والطباق: مجرد مقابلات بين المعاني كأحداث الزمن التي ترد الشعور السود بيضا، والوجوه البيض سودا.

ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها هو الآخر حلية لفظية، ولباقة في طرق الأداء، كقول الشاعر:

سريع إلى ابن العم يشتم عرضه *** وليس إلى داعي الندى بسريع

وأمثال ذلك مما تتقابل فيه الألفاظ على اختلاف موضعها، وفي مطلع البيت أو عروضه أو في حشوه.

والمذهب الكلامي، وهو نوع من الجدل العقلي، والقدرة على توليد المعاني، والدقة في المفارقات، لم ير "ابن المعتز" بدا من ذكره، كميزة من مميزات الشعر الجديد، الذي يرى إمامه "أبو تمام" أن الشعر صوب العقول وهو فيما نعتقد ليس من جوهر الشعر ولا من جوهر التفكير المنتج (محمد مندور، 1996: 51 و ابن المعتز، 1979: 25).

ولم يغب عن "ابن المعتز" أن ثمة ألوانا أخرى غير هذه الأبواب الخمسة، لكنه عدها من قبيل "المحاسن" كالاعتراض، وتأكيد المدح بما يشبه الذم، وحسن الابتداءات والتعريض والكناية... الخ. وهي كثيرة لا ينبغي للعالم أن يدعي الإحاطة بها حتى يتبرأ من شذوذ بعضها عن علمه وذكره. (ابن المعتز، 1979: 58). ومن الأمثلة النقدية عند "ابن المعتز" ما نقدمه إليك فيما يلي:

1- قال أبو عمرو بن العلاء: كنت أسير مع الفرزدق ويدى في يده، فأنشدته بيت ذي الرمة:

أقامت به حتى ذوى العود فى الثرى *** وساق الثريا في ملاءته الفجر

فقال لي الفرزدق: أرشدك أم أدعك، قلت: أرشدني، فقال: إن العود لا يذوي في الثرى، والصواب: "حتى ذوى العود والثرى". ويذكر أبو بكر الصولي أن هذا البيت أنشد في مجلس ابن المعتز فقال: "ذو الرمة" أبدع الناس استعارة، وأبرعهم عبارة إلا أن الصواب في البيت حتى ذوى العود والثرى لأن العود لا يذوى ما دام في الثرى" (الحصرى القيروانى، 2001: 160/4)

2- وكان ابن المعتز قد كتب إلى أبي العباس ثعلب م2001هـ من منفاه هذه الأرجوزة:

ما وجد صاد بالحبال موثق
بماء مزن بارد مصفق
بالريح لم يكدر ولم يرنق
جادت به أخلاق دجن مطبق

بصخرة إن تر شما تبرق
ماد عليها كالزجاج الأزرق
صريح غيث خالص لم يمذق
إلا كوجدى بك لكن أتقى
يا فاتحا لكل باب مغلق
وصير فيا ناقدًا للمنطق
إن قال: هذا بهرج لم ينفق
إنا على البعاد والتفرق
لنتلقى بالذكر إن لم نلتق

(الحصرى القيروانى، 2001: 216/1)

ويكتب إليه ثعلب:

"أخذت – أطال الله بقاءك – أول هذه الأبيات مما أمليته عليك من قول جميل":

وما صاديات حمن يوما وليلة على الماء يخشين العصى حواني
كواعب لم يصدرن عنه لوجهة ولا هن من برد الحياض دواني
يرين حباب الماء والموت دونه فهن لأصوات السقاة رواني
بأكثر مني علة وصبابة إليك ولكن العدو عراني

وأخذت آخرها من قول "رؤبة بن العجاج":

إني وإن لم ترني فإننى أخوك والراعي إذا استر عيتني
أراك بالود وإن لم ترني

(الحصرى القيروانى، 2001: 218/1)

ومن المؤكد أن "ابن معتز" بتأليفه كتابه "البديع" أفاد من نظريات السابقين الذين تحدثوا عن التصوير والصياغة، ورائدهم "الجاحظ" الذي (دارت عنده كلمات التشبيه والاستعارة والكناية والحقيقة والمجاز وغيرها مما يجعل للبيئة الكلامية المنزلة الأولى في وضع هذه

المصطلحات. وجاء "ابن المعتز" بعد "الجاحظ" فأفاد أكبر فائدة من مصطلحات القوم، وارتبط بآرائهم في جودة الكلام، وأنها تعود إلى اللفظ والمحسنات التى جمعها في كتابه "البديع" وبذلك وضع أصول هذا العلم الأول في علوم البلاغة) (النقد 101.)

وإذا كان "أبو تمام" قد أفرط في استخدام "البديع" إفراطا كثر في شعره، كما قال عنه ذلك "ابن المعتز" حتى صار صاحب مذهب فيه، فإن ذلك لا يعدو أن يكون في ذاته مرحلة في تاريخ الأدب العربي، نجمت عن الحضارة وانتشارها حين صارعت البداوة فصرعتها، اللهم إلا بقية من الأصالة العربية في القرن الثالث الهجري، بقي بعض الشعراء فيه يحاولون التشبث بها في قصائدهم، ولم يكن الوقت قد حان لكى تزهر الثقافات الأجنبية في عقول الشعراء، وكان "أبو تمام" على رأس هؤلاء الشعراء الذين أرادوا أن يعتصموا بالثقافة العربية في شكل البديع الذي أفرط فيه، وصار على يديه تجديدا دارت حوله المباحث المستفيضة، وانبرى غير واحد من العلماء يبحثون: أين وقع "أبو تمام" من الجودة؟ وإلى أين كان تجديده؟ وأخذ النقد العربي يخوض في الخصومة العنيفة بين أنصار القديم والحديث.
ونكتفي بهذه اللمحة التي تلقى بصيصا من ضوء على موقف "أبي تمام" من "البيع" لنعود إلى "ابن المعتز" وكتابه "البديع" فنقرر أن (عمله هذا كان حدثا عظيم الأهمية في تاريخ النقد العربي، وذلك لأمرين:

1- تحديده لخصائص مذهب البديع وتأثيره في النقاد اللاحقين بعده.
2- ومن الواضح أن كل مذهب شعري أو أدبي لا يستقر ويأخذ الأدباء في مناقشته والتحمس له أو ضده حتى يصاغ في مبادئ نظرية، وذلك لأنه لا يكفي أن يصدر عنه الشعراء والكتاب ليتميز كمذهب. وهذه حقيقة بينة في تاريخ كل المذاهب الأدبية فهي لم تصبح مدارس لها أنصار وتلاميذ، ولها خصوم إلا عندما وضحت أصولها وحللت وعرضت، ونحن نلاحظ أن الأدباء أنفسهم كثيرًا ما يتولون هم في العصور الحديثة بسط مذاهبهم في كتب أو مقالات أو مقدمات لمؤلفاتهم، وأما القدماء فلم يكونوا يفعلون ذلك، وإنما تولاه النقاد، وكانت أول محاولة من هذا النوع

في تاريخ الأدب العربي هي محاولة "ابن المعتز" فقد أخذ يبحث عن خصائص مذهب البديع، وحاول أن يحصيها في الجزء الأول من كتابه، وكان هذا فيما يبدو من أكبر الأسباب التي مكنت للخصومة بين أنصار القديم وأنصار الحديث، إذ أصبحت مبادئ المذهب معروفة محددة، والناظر في موازنة "الآمدي" أو في "أخبار أبي تمام لـ"لصولي"، أو في "وساطة الجرجاني" أو في غيرها من كتب الأدب يجد أن "ابن المعتز" قد أثر على هؤلاء جميعا، ولو لم يكن له من فضل غير تحديد الاصطلاحات لكفاه ذلك ليتمتع في تاريخ النقد العربي بمكانة هامة. وإذا فـ "ابن المعتز" قد ساعد على خلق النقد المنهجي بتحديده لخصائص مذهب "البديع" ووضعه اصطلاحات لتلك الخصائص، وعنه أخذ من جاء بعده. خلق هذه الاصطلاحات حادث جديد في القرن الثالث الهجري، وهو حادث له أهميته. (محمد مندور، 1996: 60)

ومن هذه الجهة يعد عمل "ابن المعتز" بالقياس إلى "ابن سلام" و"ابن قتيبة أظهر، وألصق بالنقد الأدبي، فقد اقترب بتحديده اصطلاحات علم البديع من المنهجية، على أن "الجاحظ" كانت له نظراته الثقافية في مجال البلاغة، ولكنها كانت نظرات مصبوغة بالفلسفة، ويتمازج فيها كثير من موضوعات علم البيان بقليل من علم البديع، وكان "الجاحظ" يسميها "علم البيان".

فكتابه "أول كتاب يتناول الأدب تناولا فنيًا، ويشرح العناصر والأغراض التي تزيده حسنًا، وبه انتقل إلى طور جديد هو طور العناية بالصورة، وتوجيهه إلى دراسة الشكل، وقد كان الجهد كله محصورا في نقد المعاني والأفكار والإشادة بقوتها وفخامتها، أما الأساليب فلم يكن ينظر إلى شيء فيها بعد الصحة، والبعد عن الأخطاء النحوية أو اللغوية، أما الهيئة الحاصلة، أو الصورة الأدبية فلم تظفر بشيء من العناية، مع أهميتها البالغة عند ذوي الفنون، وقد أثبت "ابن المعتز" هذه الحقيقة في الأدب العربي منذ أقدم العصور وساق الشواهد على ذلك" (بدوى طبانة، 1960: 204) .

ولا خلاف في أن "ابن المعتز" صار بعمله هذا وغالب التيار البديعي، وطغيانه على متذوقى الأدب آنذاك على درب من المنهجية مما حدا بمن جاء بعده من النقاد أن تعظم عنايتهم (بدراسة مسألة تشغل الجانب الأكبر من كتبهم، وهي مسألة "السرقات"، وأخذ اللاحق عن السابق، وما زاده هذا على ذاك، أو انحط فيه عنه، وهذه كلها اتجاهات وإن كنا لا ننكر أنها طبعية بحكم نوع الشعر العربي نفسه، ومنهجه الذي طغى عليه التقليد حتى بين يدى "أبي تمام" وأصحابه، إلا أننا — لاشك– لا نعدو الحقيقة التاريخية عندما نقر لـ"ابن المعتز بفضل توجيه النقد تلك الوجهات، وإيضاح سبله أمام النقاد). (محمد مندور، 1996: 73).

ولو لم يكن لـ"ابن المعتز" من فضل أو جهد سوى أن كتابه كان جهدًا فنيا لكفى، إذ إنه أول كتاب في البلاغة العربية التي انتظمت فنونها، وتحددت موضوعاتها فيما بعد، وصارت ثلاثة علوم هي المعاني والبيان والبديع، (ومع أن كتاب "ابن المعتز" اختص باسم "البديع" إلا أنه درس فيه مباحث فيما بعد من العلمين الآخرين). (بدوى طبانة، 1960: 211)
بهذا نسدل الستار على النقد في القرن الثالث الهجري، وهو القرن الذى شهد اتجاهات نقدية، كانت تثب لكى تعانق المنهجية الموضوعية في النقد، وإن شئت كانت تلك المحاولات بذرة ما لبث أن بسقت فروعها في القرن الرابع الهجري، وذلك يعزي إلى طبيعة هذا القرن، وإلى انتشار مد الثقافات الأجنبية خلاله، مما هيا الجو لتلك المحاولات بعد فترة أن تترعرع على أيدى جهابذة من ذوى الإحسان المتقد والفكر المصفى، والتأملات العميقة.

وإذ شهد القرن الثالث ازدهار فنون الأدب وتنوعها فعولجت علاجا جديدا، وبعد أن كانت عناية الرواة والعلماء بالفن الشعري وحده، أصبحت تلك العناية تتناوله، وتتناول إلى جانبه الرسائل والخطب والحكم والوصايا والأمثال (بدوى طبانة، 1960: 266).

واستتبع ذلك "العناية بنقدها بعد أن كان الشعر يستأثر بكل عناية، ويستنفد كل جهد من النقاد" (بدوى طبانة، 1960: 227)

ولا نغلو إذا قررنا أن الركائز النقدية وضعت في القرن الثالث، كانت أساسًا أقام عليه نقاد "القرن الرابع" الأصول النقدية التي نمت واطرد نموها عندهم، بفضل ما أثير في القرن الثالث من قضايا: اللفظ والمعنى والسرقات، والبديع، وغيرها، وكلها قضايا أخذت أصداؤها تدوى في القرن الرابع، على نحو ما يواجهنا "أبو هلال العسكري" في كتابه "الصناعتين"، وفيه نرى أنه متأثر بالجاحظ في الانتصار للفظ، ثم انتقلت القضية إلى ساحة النقد فيما ولى هذا القرن.

وكان "المبرد" كذلك ذا تأثير على "الآمدي" في الموازنة بين الطائيين، وعلى "القاضي الجرجاني" في "الوساطة" بما أثاره في الكلام عن "السرقات" كما أن بديع "ابن المعتز"، صار إماما لمذهب عرف بالمذهب البديعي، واقتدى به كثيرون في طليعتهم "قدامة بن جعفر" و"أبو هلال" و"ابن رشيق" و"السكاكي" وغيرهم من الذين اقتدوا بهم، وسلكوا سبيلهم، فأفرطوا في اختراع المحسنات، حتى فاق عددها الحصر، ولم يقف التأثير بـ "ابن المعتز" عند حد "البديع" بأن إن ما كتبه في التشبيه والاستعارة والكناية كان نواة لعلم البيان الذي انتظمت مسائله فيما بعد (بدوى طبانة، 1960: 233).

الخاتمة

وفي الإختتام لقد كان هذه وجازات سريعة، عرضت للنقد على أيدي ثلاثة من الأعلام توضح إلى أين اتجه النقد الأدبي، وتكشف أن هؤلاء أعملوا عقولهم، فلم يقف بهم حب التقليد عند معان متوارثة رددوها قانعين، بل على العكس من ذلك تفتقت أذهانهم عن ملاحظ جديدة، قد ترتد في أصلها إلى نظرة قال بها الأسلاف، ولكنهم ما زالوا بها تنقيحًا أو تقويمًا ومناقشة حتى نضجت على أيديهم، ولسنا تدعى ولا نجرؤ على القول بأن هذه

الجهود التي بذلوها ضئيلة ضحلة، وإلا كنا قد أغفلنا العامل الزمني وطبيعته، فالنظرة العلمية توجب علينا أن ننظر إلى صنيع هؤلاء في زمانهم، وفي إطار معاصريهم، حتى يأتي الحكم على هؤلاء مشاكلا للصواب، ومدانيا للواقع.

المراجع

أبو هلال العسكرى.(1997). *كتاب الصناعتين*. تحقيق: علي محمد البجاوي. القاهرة: مطبعة عيسى البابى الحلبي.

الأصفهاني، أبو الفرج. (2003). *الأغـاني*. تحقيق/ علي مهنا وسمير جابر. لبنان– بيروت: دار الفكر للطباعة و النشر.

بدوي، طبانة. (1952). *أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية*. بيروت: دار الفكر.

القالي، أبو علي.(1996). *الأمـالي*. بيروت– لبنان: دار الكتب العلمية.

ابن سلام، الجمحي.(1995). *طبقات فحول الشعراء*. تحقيق/محمود محمد شاكر.القاهرة: مطبعة المدنى.

ابن قتيبة. (1966). *الشعر والشعراء*.تحقيق أحمد محمد شاكر. بيروت: دار المعارف.

أحمد، الشايب. (2006). أصول النقد الأدبي.ط.4. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

الحصري القيرواني. (2001). *زهر الآداب وثمرة الألباب*. بيروت: المكتبة العصرية.

بدوى، طبانة. (1960). *دراسات في النقد الأدب العربي من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث الهجرى*. ط.3. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

طه، أحمد إبراهيم. (1938). *تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجرى*. القاهرة: طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر.

محمد زغلول، السلام.(1964). *تاريخ النقد العربي*. القاهرة: دار المعارف.

محمد، مصطفى هدارة. (1981). مشكلة السرقات فى النقد العربي: دراسة تحليلية مقارنة، ط. 3. القاهرة: مكتبة الإسلامي.

محمد، مندور. (1996). *النقد المنهجي عند العرب*. القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

محمود، مصطفى.(2007). *الأدب العربي وتاريخه*. مصر– القاهرة: مطبعة عيسى البابي.

جرجى زيدان. (2006). *تاريخ آداب اللغة العربية* . القاهرة: دار الهلال.

ابن المعتز، عبد الله. (1979).*كتاب البديع* .ط.2، بغداد: مكتبة المثنى.

الأزدى، على ابن ظافر.(1970). *بدائع البدائة*. القاهرة: مكتبة الأنجلو.

الجاحظ. (2003). *البيان و التبيين*.تحقيق/ عبد السلام محمد هارون. القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة.

_____. (1996). *الحيوان*.تحقيق/ عبد السلام محمد هارون. بيروت: دار الجيل.

البهبيني، نجيب محمد. (1982). *تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجرى*. القاهرة: دار الثقافة و الدار البيضاء.

عثمان عبد الرحمن. (1968). *معالم النقد الأدبي*. بيروت: مطبعة المدنى.

Animashaun, Maruf Suraqat, PHD
Senior Lecturer
Dept. of Foreign Languages (Arabic)
Faculty of Arts
Lagos State University, Ojo, Lagos-Nigeria
E-mail: ***maruf.animashaun@lasu.edu.ng***
H/P: +234(0)8032962216